عروسة النيل

الفصل السادس والاربعون

وبعد الفراغ من المحاكمة عاد ابولون الى المنزل عابس الوجه مقطب الجبين فمرَّ ببيت سوسنة فاذا بجمهورٍ من الناس واقفون امام باب البستان وعلى وجوههم الخوف والاضطراب فسأل احدهم عن علة اجتماعهم هناك في تلك الساعة فأشار هذا الى لوح كبير معلق على السور نقرأ فيهِ "اياكم والدنوّ من هذا البيت فالوباء يفتك بساكنيهِ" وكان ابولون ضعيف الفؤاد يخاف من الوباء خوفهُ من ملاك الموت فدعا اليهِ احد رجال الحفظ وطلب منهُ الوقوف على تفاصيل الاصابات فقال اصيب امس احد عبيد سوسنة وابنهُ فعزلا ثم اصيبت سيدة المنزل اليوم فضربنا على المنزل ومن فيهِ نطاقاً صحيًّا فلا يخرج منهُ احد فطار قلب الشيخ شعاعاً وحار سيفي وصول الوباء الى ذلك البيت وهو بمعزلٍ عن الاحياء الموبوءة ولما كان منزل روفينس ملاصقاً لبيت سوسنة خشي ان ينتقل الداء اليهِ فامر الرجل باتخاذ الاحتياط الشديد وبث العيون والارصاد على اهل البيت فلا يخرج منهم احد قال هذا وعاود المسير الى بيت روفينس فصعد توًّا الى غرفتهِ وكان الوقت بعد الزوال وبينما هو يستعد للنزول الى الطبقة السفلى لتناول العشاء دخلت عليهِ جارية تحمل طبقاً عليهِ شيءٌ من الاطعمة فاستغرب ذلك وقال لها علامَ اتيت بالطعام اليَّ فاخبرتهُ ان السيدات يؤثرن تناول الطعام وحدهنَّ اما طعامهُ فيؤتى بهِ الى غرفتهِ. فادرك الغرض المقصود من هذا العمل فاشتد بهِ الغيظ والحنق ونادى عبدهُ فقال شد لي على حماري ثم دار الى الجارية فقال واين سيدتك الآن قالت في الدار وعندها غمالائيل اليهودي فاسرع في النزول فلقي الصيرفي يتأهب للذهاب فعلم انهُ انما جاء لينذر اهل البيت ويحذرهم منهُ فلم يحفل بهِ بل ظل سائرًا حتى بلغ غرفة المائدة فابصر هيلانة وماري راكعتين بجانب الارملة والنساء الثلاث يبكينَ فعلم انهنَّ يبكين سوء حظ باولين وانهنَّ يتهمنهُ بالاساءة اليها فعمد الى تبرئة نفسهِ من التهمة وخاطب الارملة فلم تجبهُ ولكنها اومأت بيدها الى الباب فظلَّ الشيخ مكانهُ وهمَّ بالكلام ثانية فقاطعتهُ قائلة حسبك ما قلت يا مولاي فلا شأن لك في هذا البيت بعد اليوم فقد قطعت يدك ما كان يربطنا من رباط الصداقة فعد الى بيتك ولا تعمد الى اساءتنا فحاول الكلام وهو يتميز غيظاً فحولت وجهها عنهُ وامسكت يدَي الفتاتين قائلة هيَّا بنا يا ابنتيَّ ثم اجتزنَ الباب الى غرفة اخرى واقفلنهُ تاركات ابولون وحدهُ . ولا تسل عمَّا لم

بهِ من الغيظ والحقد في تلك الساعة فانهُ لم يلقَ اهانة كهذه في حياتهِ قط فركب حمارهُ وعاد الى منزلهِ وهو يلعن باولين ويتمنَّى لها شرّ الميتات

وقضى بعد ذلك يومين يطوف في الاسواق والشوارع ويجتمعات الناس غير حافل بالحرّ والتعب وهو يهيج القوم تارة بالتمليق وطورًا بالارهاب مبينًا لهم باجلى بيان ان امرهم في يدهم فاما هلاك اكيد او خلاص عاجل ولم يغفل عن حضور جلسات المجلس والقاء الخطب على اعضائهِ لئلاَّ يرتدوا عن عزمهم ويتحازوا الى المطران وكان اذا لقي جمهورًا من العامة يصف لهم بهاء الحفلة ويشوقهم الى رونقها وجمالها ويفصّل لهم ما كان اسلافهُ يفعلون في مواكب ايسس كما رآهُ بنفسهِ وكما نصَّت عليهِ اخبارهم المحفوظة في كتبهم كتب الحكمة والعلم ثم يخصهم على اكمال المعدَّات التي تضمن للحفلة زخرفها كل ذلك بالكلام البليغ حتى فتن سامعيهِ وشاقهم وصبوا الى حلول اليوم الذي تتجلى لهم فيهِ صورة من صور مفاخر اسلافهم العظام واصبح القوم وكلهم اطوع لهُ من بنانهِ وجميعهم يلهج بالثناء عليهِ ويرى في الامر رأيهُ حتى اذا ما آنس منهم الميل الشديد اليهِ والرغبة في العمل باشارتهِ صاح بهم خلاصكم وهلاككم في ايديكم فاذا ظلت الحال على هذا المنوال خسرتم حياتكم وحياة من تحبون وذهبت اموالكم طعمة للقحط والوباء واذا قدمتم الضحيَّة ووفى النيل عاودكم الاقبال وجادت مواسمكم وفارقكم الداء فما على المدينة اذا انفقت بضعة آلاف درهم في هذا السبيل . ولم يزل في هذا الكلام ونحوهِ حتى هاج المدينة باسرها فعيَّن المجلس موعدًا قريبًا واختاروا لذلك يومًا من ايام الاعياد لتزداد الحفلة بذلك بهجة وليتفرغ لها جميع من في المدينة

اما المطران فلم يقعدهُ فشلهُ الاول عن السعي لانقاذ الاسيرة فلما خرج من المجلس كما تقدم آنفًا ارسل رسالة الى البطريرك انبأهُ فيها بما قرَّ عليهِ المجلس واهل منف واستعطفهُ على باولين متوسلاً اليهِ ان ينهى اهل منف عن ارتكاب هذا الوزر العظيم ثم اخذ يطوف في المدينة ويخطب في الناس اينما لقيهم كاشفًا لهم القناع عن شر عملهم وسوء مغبتهِ وفعل كهنتهُ فعلهُ وغاروا غيرتهُ فبذلوا جهد المستطاع لانقاذ تلك التعيسة . لكنَّ النار التي اوقدها ابولون في صدور اهل منف لم تكن ليطفئها وعد الكهنة ووعيدهم بعد ان اضعف الجوع والمرض سلطة الايمان وذهبا بنفوذ الكنيسة فاندلع لهيبها وكأن ابولون ومريديهِ يصبون عليها زيتًا بما كانوا ينادون بهِ صباحَ مساء

وجاء عبيد ابولون الى بيت روفينس فنقلوا امتعتهُ واوراقهُ وطروسهُ وكان احدهم يحمل رسالة مختومة وفارورة الى الارملة فدفعهما اليها ففضت الرسالة وقرأت فيها ما يأتي "ليس من

العدل شجب امرءٍ قبل سماع دفاعهِ والتثبت من اقوالهِ امَّا إنتِ فقد فعلتِ بي كذلك فظلمتني لكني سكتُ واستسلمتُ الى حكمكِ فاذا عاد فيلبس فني استطاعتهِ ان يعيد المياه الى مجاريها وهانذا مرسل اليكِ الآن شيئًا من الدواء الذي ركبهُ فيلبس لمقاومة الوباء وقد امتحنت فعلهُ في هذين اليومين فتأكدت عظم فائدتهِ وعسى الداء الذي حلَّ بجيرانك ان يتجاوزكِ واهل بيتكِ". فلما وقفت ماري على فحوى الكتاب صاحت باعلى صوتها اياكِ وتجرع هذا الدواء ففيهِ السمّ الناقع . فابت الارملة تصديق قولها وانحازت اليها هيلانة قائلة حسبنا دليلاً على صدق طويتهِ ما يرتئيهِ فيهِ صديقنا فيلبس ثم جلسنَ يتحدثنَ واذا بالنبطي داخل عليهنَّ فانبأهنَّ بوصول توما ابي ياولين وقال انهُ معها في السجن فسررنَ بهذا النبإ وتفاءلن بهِ خيرًا وحينئذٍ هبَّت ماري من مكانها فقالت حان لي ان افارقكما فاعدَّ دروسي مع المهذبة فامامي عمل شاق يقتضي استعدادًا طويلاً فادعيا لي بالفوز والنجاح ثم اكبَّت عليهما تقبلهما وهما يحسبان انها ذاهبة لاعداد دروسها وانهما يريانها في الصباح ولما فارقتهما صعدت الى غرفتها حيث كانت المهذبة بانتظارها فقصَّت غدائرها والبستها ثياب الصبي وهي تبكي ولما فرغت اخذت تتأملها معجبة بجمالها ورشاقتها فقالت قد يسهل على الناظر اليكِ تمييزك ولو متنكرة فانتِ اجمل وجهًا وارق بنية من ان تكوني صبيًا فاذا لقيتِ في الطريق بعض المارَّة فانزلي قبعتك على عينيك فلا يعرفوكِ وما فرغا خرجتا سويَّة من البيت حتى اذا ما مرَّتا بكنيسة يعقوبيَّة طلبت ماري الى المهذبة ان تبقى خارجًا بانتظارها ثم دخلت وجثت على ركبتيها وبعد ان قضت بضع دقائق في الصلاة خرجت من الكنيسة وقد اشتدَّ عزمها وكبرت همتها

ولما بلغتا الفندق وجدتا رستم بانتظارهما وقد اعدَّ الهجن والاتباع فودعت ماري مهذبتها وشكرت لها عنايتها بها وحبها لها فقبَّلتها المهذبة وزودتها بعض النصائح ثم اركب رستم ماري هجينًا وامر من معهُ بالمسير فسار الركب والمهذبة واقفة تنظر اليهم حتى غابوا عن عينيها فدعت للفتاة بالسلامة والنجاح وطلبت الى الله ان يحميها في الاقامة والسفر وان يبلغها منيتها وفي الصباح دفعت كتاب ماري الى الارملة فلما وقفت على ما تضمنهُ استولى عليها القلق والجزع فدعت المهذبة اليها وعنفتها على سكوتها ولامتها على تشجيعها ماري دون ان تطلع اهل البيت على غايتها وبكت بكاء مرًّا واخذ الحزن من هيلانة كل مأخذ فأبت تناول الطعام وصارت تحسب ماري في عداد الاموات . ونحو الظهر جاء المطران يطلب ماري ليرسلها الى احد الاديرة المجاورة فانبئ بفرارها فاستشاط غيظًا وتهدد الارملة بالقصاص قائلاً سابحث عنها في طول البلاد وعرضها حتى اجدها واردها الى حظيرة الخلاص . وبعد ذهابهِ اعترفت المهذبة بانها زيَّنت

لماري الفريد وجرأتها عليهِ لتخلصها من نير الدير وشقاء عيشة الترهُّب فلما فقهت الارملة قولها طارت فرحًا واكبَّت عليها تقبلها واعتذرت اليها عما فرط منها في الصباح قائلة تجاوزي عما سمعتِ مني فانتِ كريمة الاصل طاهرة القلب رحبة الصدر. فسرَّت المهذبة سرورًا عظيمًا واحسَّت ان سعادة الشباب عاودتها وان شتاء عمرها تحول ربيعًا كربيع تلك الايام اذ كانت واخواتها فتيات في مقتبل العمر تحت سقف ابيها

وعلمت باولين بما دبر لها اهل منف فان المطران اتاها ذات يوم وانبأها بما قرَّ عليهِ المجلس وكان يطلعها على تفاصيل الخبر ملتزمًا الحذر لئلاَّ يفاجئها النبأ فيصيبها ما لا تحمد عقباهُ وحاول ان يسكن مخاوفها بما كان يؤملهُ من ارهاب القوم وزجرهم وصرفهم عن ارتكاب تلك الجريمة فلما تجلت لها الحقيقة وعلمت انها ستقع فريسة الظلم والجهل والحقد اقشعرَّت وارتاعت وضاقت بها الدنيا على رحبها لكنها كتمت ما بها اذ خشيت ان يلم ابوها بواقع الحال فتزداد همومهُ فيقضي عليهِ جزعًا وغمًّا فاخذت تعلق آمالها على ما قالهُ المطران فسكَّن ذلك بعض اضطرابها ومخاوفها حتى اذا ما بسطت الظلمة جناحيها عاودها الهمّ والقلق واستولى عليها الرعب فتمثلت لها حالتها وهي تقاد بين جماهير الناس الى تلك الميتة الشنعاء وسدّى لجأت الى الصلاة فلم تجد لها فيها عزاء فالتمست الراحة في رسائل اوريون وغنائهِ فلم يجدِها ذلك نفعًا وشقَّ عليها ان تصبح بعد عزها ورفعة مقامها عرضة لسخرية القوم وضحية لجهلهم فخطر لها ان تنتحر قبل ان يحلّ بها الويل ورأت في الانتحار دواءها الشافي لكنها لم تلبث حتى دفعت عنها هذا الخاطر وعزمت على الاعتصام بحبل الرجاء الى النهاية

وقبل حلول الاجل المضروب لتضحيتها بيومين زارها المطران ليعزيها في محنتها فاخذ يشدد عزيمتها طالبًا اليها ان تلقي اتكالها على الله الى ان قال وسالازمك الى النهاية وابذل جهدي في الدفاع عنكِ فقد يأتينا الفرج من حيث لا ندري وقد زرتك الساعة لاكلمك في الامور الروحية فاذا وقع القضاء وخاب فالنا فاني مستعدّ للعناية بابيك الى ان ترجع نفسهُ الى ربها. فايقنت باولين بحلول الاجل وعلمت ان الامر قضي وان السهم نفذ فوقع كلامهُ عليها كالصاعقة وانطرحت على مرضعها لا تعي ولما افاقت شكرت المطران على ما بذلهُ من المساعي لانقاذها واثنت عليهِ لاهتمامهِ بوالدها فاجاب وقال نعلت واجبًا فاخفقت وقد كنت اعلل النفس بمنشور البطريرك واعلق الآمال عليهِ فلما اتاني اليوم اذا بهِ غير ما كنت اشتهي نعم ان غبطتهُ شجب هذه الضلالة ولكن منشورهُ ينقصهُ الشدة المطلوبة لارهاب الناس فيقلعون عن غوايتهم لكنهُ آخر سهامي وساطلقهُ فقد يصيب الغرض وقد امرتهم ان يعدُّوا نسيجًا كثيرة منهُ لتوزع

على اهل المدينة وسارسل بعض هذه النسخ الى المجلس واعلق غيرها في الاسواق والشوارع على ان املي بالنجاح ضعيف وهذا يسوءني ويحزنني . فقالت باولين اذًا فساعدني على التأهب للموت واسمع اعترافي فاني اطلب الحل منك وان تكن من غير مذهبي فقال تكلمي ففعلت وهو يصغي الى كلامها وعيناهُ تقطران الدمع السخين حزنًا على صباها حتى اذا ما فرغت باركها وحلها

الفصل السابع والاربعون

ولما وصل المطران الى بيت سوسنة وجدها جثة هامدة وكاترينا واقفة عند رأس السرير وقد شخص بصرها واصفرَّ وجهها فحاول تعزيتها لما آنسهُ من حزنها المفرط وخاطبها بكلام رقيق عذب فدفعتهُ عنها وفرَّت من الغرفة فقال في نفسهِ لم ارَ في ما رأيت حزنًا كحزن هذه الفتاة ويلوح لي ان هنا قلبين ارتبطا باشد ربط الحب فلما سكن الواحد غمرت الاحزان الآخر اما كاترينا فلما صارت الى غرفتها انطرحت على سريرها وفي صدرها كغلي مرجل وبعد برهة احسَّت ببرد شديد فظنتهُ الوباء فقالت ليتهُ يأتيني رحمة من ربي فيريحني من حياة الشقاء هذه ثم اخذت تعيد في مخيلتها ما اتفق لها فرأت امها سائرة في طريق القبر بفضل دسائسها وشدة حقدها وعلمت ان تلك التعيسة تشققت جراثيم الداء منها ليلة قبَّلت شعرها فان امارات المرض ظهرت اولاً على شفتيها حتى استغرب الطبيب ظهورها في هذا المكان وسمعت حاتنًا يناديها قائلاً انك قاتلة املكِ وخطر لها اذ ذاك ان الاقدمين كانوا لا يفرضون عقابًا لقاتل والديهِ زعمًا منهم ان جرماً فظيعاً كهذا مستحيل فغلب عليها القنوط وتمنت الموت ثم ضحكت ضحكة اليأس الشديد وقالت اي الذنوب لم ارتكب فقد دنست اسم الله واشتركت في السحر والعرافة وشهدت شهادة الزور وارتكبت جريمة القتل فاية وصايا الله التي انزل على موسى لم اخالف فقد ماتت امي مقتولة بيدي واصبح قلبي قرارة آثام ومستودع شرور وخابت آمالي باسرها فقد سعيت الى موت دورا فجاء القدر .... ثم غلب عليها الحزن وعاودها تبكيت الضمير فمشت الحياة وودت لو تنفغر الارض فاها فتبتلعها واحست بضيق شديد فهبت من مكانها وجرت الى حيث كانت جثة امها فركعت بجانبها وهي ترتجف ولما لم تستطع البقاء هناك ركضت الى البستان وقد ضاقت بها الدنيا على رحبها فزارت المواضع التي كانت تقصدها مع امها في حياتها وكانت تتنقل من مكان الى مكان كالمجنونة ولم تزل كذلك حتى طلع الفجر فتنفست الصعداء ثم مشت نحو المنزل فصادفت انويس اخاها في الرضاع وكان يبكي فلما رآها اسرع اليها فقالت اواهُ ومصيبة هذا الفتى من بعض اعمالي فدنا منها وعزَّاها على فقد والدتها فاجابتهُ بكلام منقطع لا معنى لهُ حتى قال انها اضاعت رشدها فحزن لحزنها وفاضت عبراتهُ ووقف الاثنان صامتين ثم قالت

اتعرف يا انوبس كيف يكتبون الوصية قال نعم فقالت صف لي ذلك ففعل الى ان قال ويجب ان يوقع عليها شاهدان يشهدان على صحة توقيع صاحبها اما انتِ فلا تستطيعين كتابة وصيتكِ الآن فانك قاصرة فقالت وما عليَّ من ذاك وقد كتبت باولين وصيتها وليست اكبر مني سنًّا فقال هل بلغكِ انهم سيضحونها غدًا فقد سمعت الناس يدعونها عروسة النيل . فابتسمت ابتسام الفوز وبدا الحقد في وجهها لكنها عادت فعبست ودخلت البيت

ونحو الظهر جاء المطران لجنازة فرأى الازهار النضرة تغطي النعش فقيل لهُ ان كاترينا انتقت تلك الازهار وحدها من البستان ونظمتها اكاليل وباقاتٍ فمال اليها لما آنسهُ من حبها لامها واخذ يعزيها وهي تجيبهُ كالتائهة الغائبة

ولما تقدم الحاملون ليرفعوا النعش هبت كمن افاق من حلم وانطرحت على جثة والدتها فودعتها وداعًا يفتت الاكباد واسندت رأسها الى صدرها كما كانت تفعل في حياتها ثم سالت عيناها بالدموع لاول مرَّة وانهمر ماء العزاء منهما فوضعت فمها على اذن الميتة وقالت انظريني قليلاً فسالحق بكِ وانبئك بجميع ما جرى ثم قبلتها تكرارًا حتى ارتاعت الراهبات فجذبنها بعنف وابعدنها عن الجثة ولما اقفل النعش خذلتها قوتها فانطرحت على الارض تبكي من كبدٍ مقروحة وايقنت انها يتيمة لا معين لها على الارض ولا ناصر ولما فتحت عينيها الفت البيت خاليًا ساكنًا فاستولت عليها الكآبة وخيَّم اليأس على قلبها وعلمت انها لا تستطيع مغادرة المنزل والحرس يطيف بهِ فاخرجت منشور البطريرك وكان المطران قد جاءها بنسخة منهُ وقرأتهُ غير مرَّةٍ ومما جاء في ذلك المنشور قولهُ . ان الهنا فوق البشر كما ان النفس فوق الجسد فلا يرضيهِ تقدمة الجسد بل تقدمة الروح افلا يحوّل وجههُ عن مسيحيي منف الذين اسدلت غشاوة الجهل على ابصارهم اذا هم لجأوا في ضيقهم الى ضلالات الوثنيين وفجورهم او يحسب هؤلاء العميان انهم يصرفون غضب الله عنهم بقتلهم فتاة هرطوقية اجنبيَّة أوَ لا يعلمون ان عملهم هذا يجلب عليهم غيظ الله ونقمتهُ فان ديننا يحظر علينا تلطيخ مذابحنا الطاهرة المقدسة بدم البشر وهو يهب حياةً لا موتًا فاذا كان ثمت فتاة نقية طاهرة مملوءة بحب الله وشاءت هذه الفتاة ان تفتدي بالفادي الذي فدى الجنس البشري فتطرح نفسها في الماء وهي تصرخ قائلة تقبلني ياربُّ تقدمة راضية امامك وانقذ شعبي من ضيقهم فقد يقبل الله التقدمة قائلاً حسبي يا ابنتي رغبتك وارادتك فلن يبذل احد من اولادي الحياة التي اعطيتهُ وهي اثمن هباتي واقدسها . . . .“

فاعادت كاترينا هذه العبارة الاخيرة وهي تتأمل مغزاها ولما طال بها التفكير قالت في نفسها ساكون تلك الفتاة التي يشير اليها البطريرك فاضحي نفسي فدى شعبي واخلص من هذا

الحمل الثقيل فيعلم اوريون والمطران والملأ قاطبة انني منطوية على صفات طيبة واخلاق نبيلة وترى ابنة توما انها لا تفوقني شهامة وعزّة نفس وساطرح نفسي في الماء بمرأى منها ومن الواجب ان يعلم اوريون ان الفتاة التي باعت حياتها بارخص الاثمان فعلت ما فعلت حبًّا بهِ فيذكرها طول حياتهِ

وكانت كلما ازدادت تاملاً في الموضوع ازدادت رغبة في العمل وشوقًا الى القيام بهِ واخذت تنتظر حلول الغد بذاهب الصبر لتقوم بعملها المجيد ولما عقدت النية عليهِ شرعت تنظر في توزيع تركتها فتناولت لوحًا وخطت عليهِ وصيتها الاخيرة وفيها تركت جانبًا كبيرًا من ثروتها لعمها وخصت انويس اخاها في الرضاع بجزء غير قليل وفعلت كذلك بارملة روفينس تكفيرًا عما فعلتهُ مما ادّى الى قتل زوجها وتركت نصف مالها وبيتها لاوريون وكتبت تتضرّع اليهِ ان يقبل البيت بدلاً من قصرهِ لان لها يدًا في حرقهِ وكانت تعلم ان البطريرك يكره اوريون فلم يفتها ان هذا الميراث الذي يصيبهُ يزيدهُ مقتًا في عينيهِ فرأت ان تحتاط لذلك واوصت اوريون بان يتبرع بجانب كبير مما تركتهُ لهُ للبطريرك والكنيسة وخيرتهُ في تعيين الزمان الملائم فاذا مات في خلال ثلاث سنوات من تاريخ الوصية انتقل نصيبهُ الى عمها ثم افرزت جانبًا من المال للكنيسة بشرط ان تقام الصلوات على اسمها واسم امها في عيديهما في جميع كنائس البلاد وعينت مبلغًا آخر لبناء كنيسة تدعى باسميهما ثم اعتقت جميع عبيدها وتركت مبالغ وافرة للعتقاء من خدمها وبعد ان فرغت من كتابتها ييضتها ودعت الطبيب والعتقاء من اهل البيت وطلبت اليهم ان يشهدوا على صحة توقيعها وفي المساء جاء الطبيب باسكندر رئيس المجلس فقابلتهُ عند باب البيت وعينتهُ وصيًّا عليها ومنفذًا لوصيتها ثم طلبت اليهِ ان يوقع صك الوصية دون ان يرى ما فيهِ ففعل ولما عادت الى المنزل دعت الخدم فامرتهم باعداد سفينتها للغد وان يفرغوا الجهد في تهيئتها وتزيينها بانواع الرياحين والازهار قائلة ارغب في حضور الحفلة غدًا واريد ان اكون بحيث ارى جميع تفاصيلها ثم ذهبت الى غرفتها فنامت نومًا ثقيلاً

الفصل الثامن والاربعون

ما بلج صبح عيد سرابيس وهو اليوم المعيّن للاحتفال بتقديم الضحية حتى اسرع اهل منف الى ضفة النيل وكلهم طروب مستبشر بقرب انفراج الازمة وانقضاء ايام النحس وكان بعضهم قد قضى الليل بطولهِ هناك ولم يتخلّف عن الحضور سوى العجزة والاطفال والذين اقعدهم المرض عن المشي او الركوب واختلط الرجال والنساء والاولاد حتى باتوا كالبنيان المرصوص

وكلهم يتشوّف الى رؤية هذه الحفلة النادرة المثال والتي لم يسبق لها نظير في ما رأوهُ من حياتهم. ولم يدّخر مجلس منف وسعاً في اعداد الحفلة على نمط يأخذ بمجامع القلوب جمالاً ورواء فنصبت دكة كبيرة من الخشب تشرف على النيل وتسع الالوف من المتفرجين وخصت بالذين يدفعون رسماً معيناً واقيم في وسطها مجالس مرتفعة لاولياء الامر من المصريين وكبار رجال العرب وخدمة الدين وانتشر القوم على شاطئ النهر وكلهم بثياب العيد وقد تهيأوا لقضاء يومهم في اللهو والطرب ودار الباعة بينهم يبيعونهم المبردات والطعام والشراب كعادتهم في المواسم والاعياد وأقيم امام الدكة صقّالة من الخشب داخلة في الماء على شكل نصف دائرة متصلة بالبرّ من طرفها الغربي وافرغ الصنّاع جهدهم في تمييقها وزخرفتها بالرايات والازهار والاغصان والاكاليل حتى غدت فرجة للناظرين وكانت الجهة الغربية منها مكشوفة بحيث يرى المتفرجون ما عليها

ولم يشهد الحفلة من رجال العرب سوى عبادة وثلاثة من المقرّبين اليهِ وامتنع القسوس كلهم عن الحضور. ولمّا اكتمل الحشد واذنت الساعة سمعوا عزفاً فاتجهت الابصار الى مصدر الصوت وكفّت الجلبة وعقب العزف زغردة النساء وغناء الفتيان وكان الصوت يقترب ويزداد جلاء فاشرأبّت الاعناق وسادت السكينة على الجمهور وبعد قليل بدت طلائع الموكب وفي مقدمتها المبوقون على خيول مطهمة فلما دنوا من القوم انقسموا شطرين ووقفوا بخيلهم على جانبي الطريق وعقبهم جوقة من المغنيات فوقفنَ امام المبوقين الى اليسار وتبعهنَّ فرقة من الرجال فاصطفت مقابلهنَّ الى اليمين وكانوا جميعاً في ثياب خضراء بلون البحر وعليهم اكاليل النيلوفر وفي ايديهم باقات الحلفاء والقصب وقد ضفرت شعور النساء بالازهار البيضاء وتلاهم جوقة من الفتيان والشيوخ وهم بالملابس البيضاء وعلى مناكبهم جلود النمور تشبهاً بكهنة الوثنيين وفي مقدمتهم شيخان وقوران يحمل احدهما كاساً من الذهب والآخر كاساً من الفضة يُلقيان في الماء قبل طرح العروسة فيهِ فتقدما الى الصقالة وسارا الى طرفها الآخر فوقفا على جانبيهِ وتلاهم هؤلاء فرقة كبيرة من الضاربين على الطبول والعازفين على الشبّابات ووراءهم خمسون فتاة يتقرن على الدفوف وخمسون رجلاً بالحلل الخضراء وبعدهم شيء كثير من الزرافات والافيال والنعام والظباء والغزلان وبعض الاسود والنمور الاليفة ثم جاءت مركبة كبيرة يجرها اثنا عشر جواداً ادهم وعليها تمثالان يمثلان القحط والوباء مقهورين وحولها اولاد سود يصيحون باصوات تصمّ الآذان ولهم اجنحة على اكتافهم وقرون على جباههم وقد شدّ وثاقهم رمزاً الى جيش جهنم وعقبتها مركبة أخرى عليها إلاهة الفيضان جالسة بين الاثمار والاكاليل وحزم الغلّة وحولها اولاد يحملون

انواع الفاكهة من تفاح ورمّان وقمح وملح ودناناً صغيرة مملوءة خمرًا وكؤوساً وتلاها إلاهة الصحة في صدفة كبيرة يجرها ثمانية جياد بلون الثلج وكانت تحمل بيدها الواحدة كاساً من الذهب وفي الاخرى صولجاناً وتبعها الاله النيل عريس الحفلة منقول شكلهُ عن التمثال الذي حملهُ الرومان من الاسكندرية وهو ملاّح كبير الجثة كثّ اللحية وقد اتكأ على قارورة كبيرة واحاط بهِ ستة عشر ولداً كلهم عراة رمزًا الى الستة عشر ذراعاً التي يعلوها النيل في الفيضان الوافي وكانت مركبتهُ مملوءة بالاثمار والفاكهة والصدف يجرسها نفر من الشيوخ بلباس كهنة الوثنيين فلما ابصرها القوم علا ضجيج استحسانهم وهتافهم ومشى وراءها جوقة من الموسيقيين تصحبهم فرقة من الشبان والعذارى وهؤلاء اشابين العريس وشبينات العروس. وكان المتفرجون يعجبون بتنظيم الموكب وكثرة من فيهِ وتباين ازيائهم وبهاء حللهم وكلما طلعت عليهم فرقة قابلوها باصوات المتاف والسرور غير خافلين بالحرّ ولا مكترثين للجوع والعطش وكانت عيونهم وقلوبهم متجهة في جهة واحدة وكلهم يتطلل الى المزيد الاّ عبادة فانهُ نهض من مكانهِ واخذ يتلفت الى الوراء حيث كانت المدينة فرأى دخاناً قاتماً يصعد منها وهو يزداد كثافة فتبسم لتبسم المزدري وجلس

ولما بلغ موكب العروس الصقالة انقسم شطرين فالفتيان على الجانب الواحد والفتيات على الجانب الآخر واخذ الفريقان ينشدان ثم جاءت فرقة من الشبان اللابسين جلود النمور ووراءهم مركبة يجرّها ثمانية ثيران سود وعلى الثيران ريش النعام واعشاب الماء وعلى المركبة مظلّة على اربعة اعمدة امام كلّ عامود رجل بلباس كهنة الوثنيين وتحت المظلة بيت قصيد الحفلة وعروسة النيل وقد اتشحت بثياب بيضاء واسدلت على وجهها نقاباً شفيفاً وتدلّى شعرها الفاحم على كتفيها وامامها اكليل من النيلوفر فضلاً عن باقات منثورة في ارض المركبة وكان المطران يوحنا جالساً الى جانبها وقد عقد النية على مرافقتها الى مكان موتها للعناية بها قياماً بوعدهِ لها

ولم يعلم توما واوريون بذهابها لان الاول ثقل مرضهُ فلم يعد يعي على شيء ولأن اوريون كان يحسب ان طرحها في النيل يتم في الغد كما قال لها في رسالة جاءتها منهُ ذلك الصباح فخفف ذلك بعض همها

ولما بلغت المركبة الصقالة ارتفعت اصوات الجمهور وعلا ضجيجهم وجلبتهم واختلطت بانغام الموسيقى والغناء فرفعوها من مكانها ومشت وراء الفتيان والفتيات وهم ينشدون اغاني العرس فحاول المطران ان يخاطب الشعب فلم يلقَ سامعاً فامسك يد باولين وسار الى طرف الصقالة وفيها هما ماشيان ادركهما ابولون وطلب الى باولين ان تنزع خمارها وامر المطران ان يتخلى عنها فابيا اجابتهُ فدنا منها ومزق نقابها ثم اومأ الى الاله النيل فتقدم هذا وحيّا المطران باحترام وقبض

على يد باولين فاضطر المطران الى مفارقتها ولما بلغا طرف الصقالة التي الشيخان كاسيهما في الماء ثم انبرى احد المحامين وهو لابس لباس كاهن وتلى خطابًا انيقًا فصّل فيهِ معنى هذه الخطبة والزواج ومفاد الضحية ومزاياها ولما فرغ وضع يد باولين في يد الشيخ وطلب اليهِ ان يطرحها في النيل بصفتهِ نائبًا عنهُ وحينئذٍ دنت سفينة مزدانة احسن زينة من الرصيف فمالت دون القاء الفتاة فصاح احد الحاضرين وقال هذه سفينة سوسنة وقال غيرهُ وهذه ابنتها ووارثة فليمون الغني فقال آخر وهذه عروسة اخرى وأخذ الباقون يتساءلون عن الغرض من دنوّ السفينة من الرصيف وظهورها بمظهر العيد في حين ان سوسنّة دفنت امس ولم يكن الاّ كلا حول ولا حتى صعدت كاترينا الى ظهر السفينة فصاحت بالقوم قائلة

" ايها المطران المحترم وياهل المدينة خذوني عروسة للنيل بدلاً من ابنة توما فاني مستعدة لتضحية حياتي مختارة اسمعت ايها المطران المحترم اني اودّ بذل نفسي فداء لشعبي وبلادي وقد قال البطريرك ان تقدمة كهذه يقبلها الله فصلوا لاجلي وارحموني يا رب وهانذا يا امّاه آتيه اليك "

ثم طرحت ما كان في يدها من الزنابق وألقت بنفسها في الماء. فارتفع ضجيج الخلق بين مستحسن ومستهجن وشاكر ومرتعد ورآها النوتي الشيخ الذي كان يمثل اله النيل فارتاع وافلت يدهُ من يد باولين ووثب الى النهر وتبعهُ انوبيس وبعض البحارة فلم يظفروا بها وكان انوبيس اعرج لا يستطيع السباحة فغرق ولحق بكاترينا في قبرها. ولمّا هدأ روع الناس امسك المطران يد باولين يسراهُ ورفع الصليب بيمناهُ وقال مخاطبًا الجمهور " لقد تمت مشيئة ابينا البطريرك الذي تكلم بوحي الهي وهوذا فتاة يعقوبيّة طاهرة نقية ضحت نفسها مختارة مفتدية بالفادي تكفيرًا عن ذنوب مواطنيها امّا الآن وقد اصاب النيل ضحيتهُ فهذه (واشار الى باولين) حرّة يجب الافراج عنها " لكنهُ لم يكد يتم كلامهُ حتى هجم ابولون عليهما فقبض على ثوب باولين وصاح بمن حولهُ ليدنُ احدكم فينوب عن اله النيل ويطرح في النهر عروستهُ فاعترضهُ المطران مدافعًا عن باولين فحمي عنف ابولون وامسكهُ يريد نزع الصليب من يدهِ فصاح بهِ المطران بصوت كهزيم الرعد " محروم محروم " ولما سمع المصريون هذه اللفظة هيّت الحمية في صدورهم واتقدت نار الغيرة الدينية في قلوبهم فهجم رئيس جوقة المغنين على ابولون وجذبهُ بعنف والتجأ اليهِ كثيرون غيران بعضهم تشيّع لابولون وفيما هم بين اخذ وردّ سمعوا اجراس المدينة تقرع قرعًا عنيفًا وابصروا شابًا يجري نحوهم وفي يدهِ سيف مصلت وقد اسودّ وجههُ وتمزقت ثيابهُ فحاد القوم عن طريقهِ اذ رأوهُ يندفع نحوهم كالسهم المارق ولما توسطهم عرفوهُ انهُ اوريون فوثب على الصقالة كالاسد الضاري وانتشل باولين من قبضة ابولون فلما رآتهُ كاد

يغمى عليها من الفرح والذهول فضمها اليهِ يسراهُ وبقي شاهرًا سيفهُ باليمنى فلم يجسر احد على الدنوّ منهُ فقد كان كأسَدٍ تدافع عن اشبالها ولما انتشل باولين سقط الشيخ ابولون على وجوههِ ثم نهض واراد الهجوم عليهما لكنَّ اوريون لم يكن وحدهُ بل تبعهُ رجال هجموا على القوم ومزقوهم اي ممزق فدافع هؤلاء وتراكضوا وسقط بعضهم في الماء ومنهم ابولون نفرق في من غرق ونجا الباقون سباحة وكان عبادة يراقب ما يجري فخشي ان يكون صاحب السيف اوريون فنهض يريد القبض عليهِ واعادة النظام الى الحفلة لكن ازدحام الناس حال دون تقدمهِ وذلك ان المسجونين فرُّوا كلهم من السجن وجروا الى مكان اجتماع الناس وهم يصرخون النار النار فقد احترق السجن والمدينة يلتهمها اللهيب. فاضطرب القوم وهبوا يطلب كل واحد منهم بيتهُ ليتفقد مالهُ واطفالهُ فتركوا الخيول والثيران من المركبات فركبوها وهم يصيحون ويبكون ويلعنون واختلط الحابل بالنابل حتى لقد يظن الناظر اليهم ان القيامة قامت . فاستلَّ عبادة سيفهُ وهجم يريد الصقالة وهو يدفع الناس من امامهِ اما هم فجمدوا مكانهم لا يتزحزحون منهُ ودهش لسكونهم فرفع عينيهِ ورأى وراءهُ غبارًا مدَّ مناكب الفضاء ثم انجلى عن فرسان غاطسين في الزرد والحديد يتقدمهم القاضي عثمان فلما وصلوا ترجَّل القاضي وصاح لقد عفي عنها ثم دنا من باولين وهنأها بخلاصها وسلامتها فلما سمع عبادة ما قال علم ان الامر جاء من الخليفة

وكان البعض قد اضرموا النار في السجن اثناء الحفلة يريدون هلاك اوريون مخنوقًا لكنَّ السجانين دروا بذلك فاطلقوا سراح المسجونين واسرع اوريون ومن معهُ الى ضفة النهر كما تقدَّم. لما النار فاندلع لهيبها في المدينة فالتهمت المساكن والمنازل فلم تبقِ ولم تذر ولم ينجُ من فتكاتها سوى بعض البيوت وفي جملتها بيت روفينس فامر القاضي بنقل اوريون وباولين اليهِ وطلب اليهما ان يمكثا فيهِ الى ان يعود عمرو ابن العاص

اما عمرو فان رستمًا وماري القبطية في برنيس فبسطا لديهِ ما حلَّ باوريون وباولين وما يتهددهما من الهلاك العاجل وكانت برنيس محطة الحمام الزاجل فرفع عمرو الامر الى الخليفة في المدينة فاتاهُ الجواب بالعفو عن الفتاة فبعثهُ الى القاضي كما تقدَّم

وظلَّ ماء النيل آخذًا في الانخفاض رغمًا عن تقديم الضحية فدعا القاضي اهل منف والفسطاط الى اجتماع عقدهُ على ضفة النيل وذلك لثلاثة ايام بعد الحفلة ثم امر المنادي العربي والترجمان المصري ان يعلنا على رؤوس الاشهاد ما يقولهُ الخليفة من أن الله يكرهُ الضحايا البشريَّة الى ان قال وقد ارسل الخليفة كتابًا ليلقى في النهر وهذه صورتهُ " الى نيل مصر امَّا بعد فان كنت تجري بامرك فلا تجرِ واذا كان الله الواحد القهَّار هو الذي يجريك بامرهِ فنسأل

الله الواحد القهار ان يجريك" ثم امر القاضي الناس ان يعبروا النهر ففعلوا ومشى المطران والكهنة في مقدمة المسيحيين ومشى الحاخامون في مقدمة اليهود واجتمعت الطوائف الثلاث في جامع عمرو حيث ابتهلوا الى الله وتضرعوا اليهِ ليشفق عليهم ويمنّ بالفرج

يقول كاتب هذه الرواية وليست هذه المرة الوحيدة التي اجتمعت فيها تلك الطوائف في الجامع المذكور ليدعوا الله فقد رأيت بعيني المسلمين والمسيحيين واليهود مجتمعين فيهِ مشتركين في الصلاة والدعاء وعندي ان الله استجاب صلواتهم المشتركة

ولم يمضِ زمن طويل حتى جاءت البشائر من الشلالات تنبئ بارتفاع ماء النيل في تلك الاصقاع ثم اخذ النيل يرتفع في مصر حتى فاضت ضفتاهُ فارتوت الارض العطشانة وابشر الفلاح بقرب الفرج وسقط مطر غزير فغسل الارض والاشجار من ادرانها وذهب بالغبار وانقضى الوباء . وفي تلك الاثناء عاد عمرٌو بصحبة رستم وماري وفيلبس وهاشم

ولمّا صفت الاكدار احتفل بقران اوريون وباولين وفيلبس وهيلانة ورستم وماندافي احتفالاً نادر المثال. ووقف عمرٌو على المشروع الذي وضعهُ اوريون في تقسيم الاطيان فاعجبهُ وسرَّ بهِ فاثنى عليهِ واقامهُ مقوقساً مكان ابيهِ فانتقل بزوجتهِ الى الاسكندرية ومعهما ماري ابنة اخيهِ ومهذبتها . وكانت باولين قد قصَّت عليهِ ما فعلتهُ كاترينا فحزن عليها حزناً شديداً وحفظ لها في قلبهِ اجمل ذكر ورزقا ولداً ذكراً عنيا بتربيتهِ احسن تربية ورأى البطريرك ان لا فائدة من متاوأة اوريون فصالحهُ ولمّا ولد ابنهُ تولى عمادهُ وكان لهُ عرّابًا وسماهُ جريج على اسم جدهِ

امّا فيلبس فرحل بعروسهِ وامها الى الاسكندرية حيث تفرغ لمهنتهِ بجدهِ المعتاد محسناً الى الفقراء ومكرماً من الجميع وظلّ الى آخر حياتهِ صديقاً حميماً لاوريون واهل بيتهِ ولمّا ماتت ام هيلانة دفنوها في قبر زوجها روفينس

واجزل اوريون العطاء لرستم ووهبهُ شيئاً كثيراً من المال فاقترن بماندافي وعاد الى بلادهِ فاشترى ضيعة واهتم بتربية الماشية والسائمة ورزق اربعة بنين سماهم هاشماً وفيلبس ورستم وروفينس

وشفي الضابط ابن اخي يوستينوس الوزير من جراحهِ بعناية دورا فباح لها بحبهِ وكانت تعلم انهُ احبها قبل ان تزوجت باخيهِ المتوفى فقبلتهُ زوجاً واحتفل بقرانهما في مصر واهدتهما باولين الزمردة الكبيرة التي اعيدت من القسطنطينية

ولم ينسَ الناس في مصر عروسة النيل ولا يزال اهل القاهرة يصنعون دمية من الطين يسمونها العروسة ويطرحونها في النهر ليلة نزول النطقة . انتهى